الفصل الرابع:
طرد إبليس من الجنة وهبوطه إلى الأرض وهبوط آدم وحواء بعده إليها

واكتمل التمهيد لخلق آدم وحواء عليهما السلام بخلق ما يلزمهما في السماء والأرض كما سبق القول.. فلما خلق الحق تبارك وتعالى آدم عليه السلام وحان الوقت الذي قدر الله عز وجل نفخ الروح فيه - قال للملائكة:{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾} [الحجر: ٢٩]. ونفخ الخالق العظيم الروح في جسد آدم،{ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾} [الحجر: ٣٠ - ٣١]. ولم يكن لإبليس حجة معقولة لرفضه أمر خالقه سبحانه بالسجود لآدم. فاختلق الأعذار عذرا بعد عذر. فتارة يقول: { قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [الحجر: ٣٣]. وتارة يقول:{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾} [الأعراف: ١٢]. وكان جزاء تكبره وتعاليه على آدم عليه السلام وعلى خالقه علام الغيوب - أن طرده الله تعالى من رحمته، وأمره بالخروج من الجنة، والهبوط للأرض. وأحلَّ عليه اللعنة والذلة والحقارة إلى يوم القيامة. يقول الحق سبحانه:{قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾} [الحجر: ٣٤ - ٣٥][1].. وتعبيرا عما حل به من طرد من رحمة الله وهبوط إلى الأرض في ذلة وحقار - رَنَّ إبليس رنة حين لعن، ورنة حين أهبط إلى الأرض. والرنة منه صوت يدل على الفزع مما حل به جزاء تكبره وتعاليه. "

(1) رجيم: أى مطرود من رحمة الله عز وجل.

ذكر إبراهيم بن مفلح أن في تفسير بَقيِّ بن مَخْلَد: أن إبليس رن أربع رنات: رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين وُلِدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب " [1]. وقال سعيد بن جبير: " لما لعن الله تعالى إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة " [2]. وهذا الرنين منه إشارة إلى أنصاره، تَجمْعُ على إبليس أصحابَهُ وأعوانه من الجن حتى يستمعوا إلى توجيهاته ضد الإسلام والمسلمين من بنى آدم.. فقد ورد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: " لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة رن إبليس رنة فاجتمعت إليه جنوده " [3]..

وهبط إبليس اللعين إلى الأرض امتثالا لأمر الله عز وجل ولحق به آدم وحواء بعد عصيانهما الله وأكلهما من الشجرة وتوبتهما إلى الله بعد إحساسهما بالندم.{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾} [البقرة: ٣٨]. وطلب الملعون إبليس من ربه سبحانه وتعالى أن ينظره أى يؤجل موته وعقابه إلى يوم البعث والنشور. وقد قصد من وراء ذلك الهروب من الموت والبقاء حيا إلى يوم البعث والنشور. لكن الله جل جلاله فوت عليه قصده فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم. وهو يوم النفخة الأولى التي تموت عند سماعها كل الخلائق[4].{ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾

(1) ص 301 من كتاب فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد - تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.
(2) رواه ابن أبى حاتم نفس الصفحة.
(3) رواه الحافظ الضياء في المختارة. ص 301 من نفس المرجع السابق.
(4) القرطبى27/10ص 8 من القسم السابع من كتاب صفوة التفاسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى.

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾} [الحجر: ٣٦ - ٣٨]. وما أن حصل الشيطان الرجيم على وعد من الله تعالى بتأجيل عذابه وموته إلى يوم النفخة الأولى - حتى تعهد أمام خالقه عز وجل بإغواء آدم وبنيه وتزيينه طريق الضلال لهم كما أغواه ربه، واستثنى إبليس من الإغواء عباد الله المخلصين لأن هؤلاء لا سلطان له عليهم. وفي مقابل وعد إبليس تعهد رب الخلق أجمعين بأن يدخل إبليس وكل من تبعه ومات على تبعيته من الضالين - جهنم وبئس المصير المخصص لهم يوم القيامة. فقال سبحانه:{قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾} [الحجر: ٣٩ - ٤٣].. وبدأ إبليس في تحقيق وعيده. فقصد أول ما قصد إلى إغواء آدم قبل أن يخرج من الجنة. فزين له الأكل من الشجرة التي نهاه ربه عن الأكل منها هو وزوجته حواء. وأوعز الملعون لآدم، أن ربه ما نهاه عن الأكل من هذه الشجرة إلا لكي لا يصبح ملكا أو يكون من الخالدين. فإن من أكل منها يكون نصيبه الخلود والملك. ومن المؤكد أن إبليس كان كاذبا في هذا الزعم الذي أغوى به آدم عليه السلام. إذ لو كان زعمه صادقا لأكل هو منها وما طرد من الجنة وأهبط إلى الأرض. لكنها إرادة الله. وما زال إبليس يزين لآدم ذلك حتى أكل من الشجرة هو وزوجه حواء. وسرعان ما ظهرت لكل منهما عورة الآخر فأسرعا يقطفان من ورق الجنة ما يدارى عورتهما. وعاتبهما ربهما العظيم على استماعهما لوساوس

عدوهما إبليس. وأحسا بالندم على طاعتهما لهذا العدو المبين. وطلبا العفو والمغفرة من الرحمن الرحيم فأوحى ربنا العظيم لآدم كلمات يقولها مع حواء ليتوب جل جلاله عليهما. وفى ذلك يقول المولى عز وجل{فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} [البقرة: ٣٧]. وقد ورد أن هذه الكلمات جاءت في سورة الأعراف. وهى قوله تعالى:{رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ } [الأعراف: ٢٣](1).. وفى رواية أخرى عن أبى نجيح عن مجاهد أيضا أن الكلمات هى: " اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك. رب إنى ظلمت نفسى فتب علىَ إنك أنت التواب الرحيم " (2).. وهى كلمات تؤدى نفس المعنى الذي ورد في آية سورة الأعراف.

وبعد أن تاب الله التواب الرحيم على آدم وحواء أمرهما بالهبوط إلى الأرض؛ حتى يكملا حياتهما ويعمرا الأرض بالإنجاب والبناء والإصلاح، ويشتركا مع ذريتهما في المعركة الكبرى وهى الصراع بين الخير والشر، كما سبق بيانه. قال عز وجل:{ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾} [الأعراف: ٢٤].. وهكذا صدر الأمر الإلهى لآدم وحواء بالهبوط إلى الأرض كما صدر لإبليس من قبلهما. وما ذلك إلا لبدء مرحلة جديدة من الحياة تختلف عن سابقتها بالنسبة لآدم وحواء عليهما السلام. فهما يتعايشان مع عدوهما اللدود إبليس اللعين وجها لوجه. وعليهما أن يحذرا منه في كل تصرفاتهما وفى كل مراحل حياتهما. وكذلك الحال بالنسبة لأولادهما وبناتهما الموجودين معه والقادمين إلى يوم الدين..

(1) وقد روى ذلك عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخرسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(2) قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير، تحقيق أبي عبد الله الأنصاري - دار القلم للتراث ص 21.

وعن إخراج آدم وحواء - عليهما السلام - من الجنة وردت بعض الآثار، منها ما سبق أن أشرنا إليه، مما رواه الحافظ ابن عساكر عن مجاهد:

" أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره. فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه وتعلق به غصن، فظن أدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول العفو العفو، فقال الله: أفرارا منى؟ قال: بل حياء منك يا سيدى " [1]..

كما وردت آثار عن مكان هبوط آدم وحواء إلى الأرض، منها ما قاله ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير عن سعيد عن ابن عباس قال: " أُهْبِطَ آدم - عليه السلام - إلى أرض يقال لها دحنا بين مكة والطائف " [2]. وعن الحسن قال: أُهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس. بدستمان - من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان " [3]. وقال السُّدِّىُّ: " نزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وبقبضة من ورق الجنة، فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك " [4].. وروى ابن أبى حاتم كذلك عن ابن عمر قال: " أُهبط آدم بالصفا، وحواء بالمروة " [5]..

وسواء كان هذا أو ذاك، فقد تم هبوط آدم وحواء - عليهما السلام - تنفيذا لأمر الله جل جلاله وإرادته، حتى يحدث الصراع بين الحق

(1) سورة ص19، 20من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبى عبد الله الأنصارى.
(2) ص20من نفس المرجع.
(3) الصفحة20من المرجع السابق ورواه أبو حاتم.
(4) نفس الصفحة من المصدر السابق.
(5) من نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

والباطل كما قدمنا، وتعمر الأرض كما أراد الله سبحانه، بغلبة الحق على الباطل ويظل ذلك إلى يوم القيامة...

* * *